العدول عن التَّصريح باللفظ القبيح
دراسة تطبيقيَّة في بلاغة اللطافة في القرآن الكريم

الدكتور أسامة اختيار*

ÇİRKİN LAFIZLARI AÇIKÇA KULLANMAKTAN KAÇINMAK
KUR'ÂN-I KERİM'DE NÜKTELİ İFADELERLE İLGİLİ BİR ARAŞTIRMA

Öz: Çirkin lafızdan kaçınma anlamına gelen letâfet, Kur'ân'da "ta'rîz" ve "kinâye" olmak üzere iki şekilde ortaya çıkmaktadır.

Kur'ân'da çirkin lafızlardan kaçınma iki alanda söz konusu olmaktadır: Birincisi, kadın ve erkek arasındaki meşru ve gayri meşru ilişkilerde hayâ sınırlarını zorlayan konulardır. Bu konuda Kur'ân, açık lafızlar yerine kinâye ve ta'rîz yoluyla daha kapalı lafızları seçerek çirkin lafızlardan kaçınmaktadır.

İkincisi; zor şartlarda Müslümanlara hitap eden, tartışma içeren veya gereksiz tartışmaları ortadan kaldırmayı amaçlayan konulardır. Bu konularda ise Kur'ân en hassas lafızları seçmektedir. Böylece üslup açısından eşsiz bir letâfet göstermektedir.

Bu çalışmada söz konusu konuları delâlet ve belâgat açısından ele als dıktan sonra, belâgat ve tefsir alimlerinin bakış açıları üzerinden bazı sonuçlara ulaşmayı hedeflemekteyiz.

Anahtar Kelimeler: Belâgat, Delâlet Amaçları, Kinâye, Ta'rîz, Letâfet, Çirkin Lafız.

REVERSE THE UGLY VERBAL STATEMENT-RHETORICAL STUDY IN TERM OF KINDNESS AT THE QURAN

Abstract: This phenomenon is found in Arabic rhetoric, called kindness. We will study the causes of this phenomenon in the Quran, it is important to point out that there are no vulgarity words in the Quran. But the vulgarity words in people's lives are divided into two sections, the De-

* Doç. Dr. Ousama Ekhtiar, Bingöl Üniversitesi [ousama967@gmail.com].

partment of topics related to emotional life, and the Department of topics related pessimism and discounts. Quran does not mention these words for moral, educational and psychological reasons, so Quran used other politely words indicate emotional life, rather than the vulgarity words that people use in everyday life. Language of the Quran very politely and have many of modesty, it cares tastefully of society, does not use a reprehensible method, as well as interested in good manners, when it talk about the relationship of men and women it uses very politely language to observance of good manners, which god calls the people for it. So Quran resort to blind those words through the use of the method of metonymy and exposure. Quran also follows the same method to get away from repulsive words when the speech is directed to an important person, in order to carry the gospel to him, and Quran sometimes wants to get away from the controversy and litigation using the method away from those repulsive words.

Key Words: Arabic Rhetoric, Metonymy, Exposure, Kindness, Absence of Vulgarity Words.

ملخص البحث

نقصد باللطافة العدولَ عن التَّصريح باللفظ القبيح، وتظهر اللطافة في القرآن الكريم في نوعين بلاغيّين؛ هما الكناية والتَّعريض. وتنقسم موضوعاتُ العدولِ عن اللفظ القبيح في القرآن الكريم إلى قسمين؛ الأوَّل: موضوع العلاقة المشروعة والعلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة، وفي هذا القسم يعدلُ القرآن الكريم عن اللفظ القبيح باستخدام اللطافة من طريقَي التَّعريض والكناية بدلاً من اللفظ الصَّريح. والثَّاني: موضوع حَسْمِ الجدلِ بين المسلمين وأعدائهم في الظُّروف الصَّعبة بهدفِ تجاوزِ الخصوماتِ والإعراضِ عن المخاصمِين، وفي هذا الموضوعِ يصطفي القرآنُ الكريم أكثرَ الألفاظ دقَّةً لِدفعِ الجدلِ في الخصومة بلطافة تبلغُ الدلالةَ المقصودةَ.

نأملُ من خلال هذه البحث الوصولَ إلى بعض النَّتائج المهمَّة من خلال مناقشةِ آراء علماءِ التَّفسير وعلماء البلاغة لِفهمِ ظاهرة اللطافة في القرآن الكريم ومقاصدها البلاغيَّة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، مقاصد الدلالة، الكناية، التعريض، اللطافة، اللفظ القبيح.

العدول عن التَّصريح باللفظ القبيح
دراسة تطبيقيَّة في بلاغة اللطافة في القرآن الكريم

تسودُ مظاهرُ العدولِ عن التَّصريح باللفظ القبيحِ في مجالين؛ هما الكنايةُ والتَّعريضُ، ويُطْلَقُ على هذه الظَّاهرة اصطلاح اللطافة، وتقوم خطَّةُ هذا البحثِ على الوقوف عند الكناية والتَّعريض تمهيداً لدراسة علاقتهما باصطلاح اللطافة، وسوف نشرح معنى اللطافة ومجالاتها، ثمَّ نتجاوز الإجراءَ النَّظريَّ إلى دراسةٍ

تطبيقيَّةٍ في القرآن الكريم، فَنَشْرَعُ في دراسة اللطافة في القرآن الكريم من جهة العدولِ عن اللفظ القبيحِ للوقوفِ عند المقاصدِ الدلاليَّة والتجليَّات الجماليَّة لهذا العدول.

أولاً: الكناية والتَّعريض وعلاقتهما باصطلاح اللطافة

الكنايةُ في اللغة "أن تتكلَّم بشيءٍ وتريد غيرَهُ، وكنى عن الأمر بغيره يكني كِنايةً يعني إذا تكلَّمَ بغيره ممَّا يُسْتَدَلُّ عليه، نحو الرَّفَثِ والغائطِ"[1] وفي الاصطلاح: "تَرْكُ التَّصريح بِذِكْرِ الشَّيءِ إلى ذِكْرِ ما يلزمُه لينتقلَ من المذكور إلى المتروك"[2] وأوَّلُ مَنْ عرضَ للكناية مصرِّحاً بالاصطلاح عليها مَعْمَرُ بن المثنَّى (ت ٢٠٩هـ) في كتابه (مجاز القرآن) وجعلَ منها الآيةَ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾[3] فقال: "كناية عن حاجة ذي البطن"[4] وفي هذا القولِ تصريحٌ منه بلفظ الكناية، وصرَّحَ بذلك في موضعٍ آخر في تفسيره للآية المذكورة، فقال: "كناية عن إظهار لفظِ قضاءِ الحاجة"[5] وفي لفظ الغائط لطافةُ العدولِ عن لفظٍ قبيحٍ، قال الطبريُّ (ت ٣١٠هـ): "جُعِلَ كنايةً عن قضاء حاجةِ الإنسان، لأنَّ العربَ كانت تختار قضاءَ حاجتِها في الغِيطان"[6] واختلفَ العلماءُ في الكناية أهي مجازٌ أم حقيقةٌ، وذكرَ السُّيوطيُّ (ت ٩١١هـ) تفصيلاتِ ذلك الاختلافِ[7]، وإرادةُ الاختصار تمنعنا من الخوض فيه لبعده عن بحثنا، وما يجب أن نَعْلَمَه هنا هو أنَّ **الكنايةَ في اصطلاح الأقدمين تكون في الحَسَنِ أو القبيح**، كقولك: "فلان طاهرُ الذَّيل نقيُّ الثَّوب" **في حين تقتصر اللطافة على العدول عن القبيح** إلى ما يدلُّ عليه تجنُّباً لِذِكْرِ لفظه، وهذا يجعل الكنايةَ أوسعَ من اللطافة من حيث الاصطلاح.

أمَّا **التَّعريضُ** لغةً فهو: "خلافُ التَّصريح"[8] واصطلاحاً هو: "اللفظ الدالُّ على الشَّيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ"[9] وقد أشار إليه الفرَّاءُ (ت ٢٠٧هـ) لكنَّه لم يُسَمِّهِ، ونستدلُّ على ذلك من تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[10] وفيه دَفْعٌ للمجادلة مع التَّعريض بغباوتهم وضلالهم، قال الفرَّاءُ: "إنَّا لضالُّون أو مهتدون، وإنَّكم أيضا لَضالُّون أو مهتدون، وهو يعلم أنَّ رسولَه المهتدي، وأنَّ غيرَهُ الضالُّون"[11] وذكره الأخفشُ الأوسطُ (ت ٢١٥هـ) في تفسير هذه الآية ولم يُسَمِّهِ فقال: "هذا في كلام العربِ على أنَّه هو المهتدي"[12] ويدلُّ ذلك على أنَّ الفرَّاءَ والأخفشَ الأوسطَ قد عَرَفا التَّعريضَ وإنْ لم يُسمِّياهُ، غير أنَّ ابنَ قتيبة (ت ٢٧٦هـ) سمَّاهُ فقال: "ومن هذا الباب التَّعريضُ،

---

1 ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٤٩٩١، ٥١/ ٣٣٢ (كني).

2 السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم، ضبطه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ٧٨٩١، ص ٢٠٤. وللتفصيل في ذلك انظر:
Bilgegil, M. Kaya, Edebiyat Bilgi ve Teorileri, Sevinç Matbaası, Ankara , 1980, s. 175- 178.

3 النساء: ٣٤.

4 معمر بن المثنى، أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٦٦٩١، ١/ ٨٢١.

5 المصدر نفسه: ١/ ٥٥١.

6 الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٠٠٠٢، ٨/ ٨٨٣.

7 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٤٧٩١، ١/ ٩٣١.

8 ابن منظور، لسان العرب، ٧/ ٣٨١ (عرض).

9 ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 0241هـ، 2/ 681. وللتفصيل انظر:

10 سبأ: ٤٢.

11 الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١، د.ت، ٢/ ٢٦٣.

12 الأخفش الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة البصري، معاني القرآن، تحقيق هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٠٩٩١، ٢/ ٤٨٤.

والعربُ تستعمله في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجهٍ هو ألطفُ وأحسنُ من الكشف والتَّصريح"[13] وخلطَ أبو هلال العسكريُّ (ت٣٩٥هـ) الكنايةَ بالتَّعريض، فقال: "أنْ يُكَنَّى عن الشَّيء ويُعرَّض به ولا يُصَرَّح"[14] وأدرك الثعالبيُّ (ت٤٢٩هـ) ما بينهما من اختلافٍ، والشَّواهدُ التي ذكرها في الباب السَّابع من كتابه (الكناية والتَّعريض)[15] تدلُّ على أنَّه فَصَلَ بينهما من غير أن ينصَّ على الفرق، ومازَ الزمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ) الكنايةَ منَ التَّعريض فقال: "فإن قلْتَ: **أيُّ فرقٍ بين الكناية والتَّعريض؟** قلْتُ: الكنايةُ أن تذكرَ الشَّيءَ بغير لفظِه الموضوعِ له، كقولكَ: طويلُ النِّجادِ والحمائلِ لِطُولِ القامةِ، وكثيرُ الرَّمادِ للمضيافِ، والتَّعريضُ أنْ تذكرَ شيئاً تدلُّ به على شيءٍ لم تذْكُرْهُ"[16] وفَصَلَ الرازيُّ (ت٦٠٦ه) بينهما، فقال: "الفرقُ بين الكناية والتَّعريض أنَّ الكنايةَ أنْ تذكرَ الشَّيءَ بذكر لوازمه، كقولك: فلانٌ طويلُ النِّجادِ، كثيرُ الرمادِ، والتَّعريضُ أنْ تذكرَ كلاماً يحتمل مقصودَكَ ويحتمل غيرَ مقصودِكَ إلا أنَّ قرائنَ أحوالكَ تؤكِّدُ حَمْلَهُ على مقصودِكَ"[17] لكنَّ هذا التَّعريفَ يُدخِل التَّوريةَ في ذلك الحدِّ، وهما مختلفان، وجَعَلَ السَّكَّاكيُّ (ت ٦٢٦هـ) التَّعريضَ من أقسام الكنايةِ[18]، **وخيرٌ من ذلك تعريفُ ابنِ الأثير** (ت ٦٣٧هـ) للتَّعريض أنَّه: "اللفظُ الدالُّ على الشَّيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقيِّ ولا المجازيِّ"[19] فأخرجَ من ذلك الاستعارةَ، لأنَّ دلالتَها من جهة المجازِ على مدلولها، وأخرجَ الكنايةَ لأنَّ دلالتَها على ما تدلُّ عليه من طريق الحقيقةِ والمجازِ، بخلاف التَّعريضِ، فإنَّه خارجٌ عن الحقيقة والمجاز كليهما، وتأتي دلالتُه من جهة المفهومِ المركَّبِ، لا من جهة اللفظ المجازيِّ المقترنِ بقرينةٍ لفظيَّةٍ مانعةٍ، ونميز الكنايةَ من التَّعريض بأنَّ التَّعريضَ أخفى دلالةً، كذلك يكون التَّعريضُ بغير قرينةٍ لفظيَّةٍ ظاهرةٍ في نصِّه، ولذلك عرَّفَهُ بعضُ العلماء بقولهم: "المعنى الحاصلُ عند اللفظ لا به"[20] وقولُهم: "لا به" يُخْرِجُ الحقيقةَ ويُخْرِجُ المجازَ.

أمَّا **اللَّطافةُ** لغةً فهي الترفُّقُ، يقال: "لَطَفَ فُلانٌ يَلْطُفُ إذا رَفَقَ لُطْفاً، وَيُقالُ: لَطَفَ اللَّهُ لَكَ أَي أَوْصَل إِلَيْكَ مَا تُحِبُّ بِرِفْقٍ"[21] واصطلاحاً: **العدول عن اللفظ القبيح إلى ما يدلُّ على معناه من غيره،** وأوَّل مَنْ وقفَ على اصطلاحِ اللَّطافةِ الجاحظُ (ت٢٥٥هـ) وقد رصدَها في كلام العرب، غير أنَّه لم يذكر تعريفَها، واقتصرَ على تسميتها، وذكرَ أمثلتَها كقول العرب: "دبَّتْ إليه دُوَيْبِيةُ الدَّهرِ، وذلك حين أرادوا لطافةَ المدخل"[22] عدولًا عن ذِكْر الموتِ المتَطَيَّر به إنْ أدركَ القائلُ أنَّه منفِّرٌ للسَّامع، وتوسَّع المبرِّدُ (ت ٢٨٥هـ) في أغراض اللطافة، لكنَّه جعلها من الكناية فقال: "من الكناية، وذاك أَحْسَنُها، الرَّغبةُ عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدلُّ على معناه من غيره، قال الله وله المثل الأعلى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾"[23] والرَّفَثُ كنايةٌ عن الاسم القبيحِ الموضوعِ لغةً للدلالة على معنى الجماع، في حين قصرَ ثعلب

---

13 ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣، ص٣٦٢.

14 العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ، ص ٨٦٣.

15 الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، التعريض والكناية، تحقيق عائشة حسين فريد ، دار قباء للطباعة، بمصر، ١٩٩٨، ص٣٦١- ٧٦١.

16 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨، ١/ ٩٥٤.

17 الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر التيمي، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٠ هـ، ٦/ ٩٦٤.

18 السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٣٠٤.

19 ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢/ ٦٨١

20 يحيى بن حمزة بن علي الحسيني الطالب، الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ١/ ٤٩١.

21 ابن منظور، لسان العرب، ٩/ ٧١٣ (لطف).

22 الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، الحيوان، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥، ١/ ٧٣٣.

23 المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧، ٢/ ٥١٢. والآية المذكورة من البقرة: ٧٨١.

(ت ٢٩١هـ) اللَّطافةَ على التَّعريض فقال: "لطافةُ المعنى وهو الدِّلالة بالتَّعريض على التَّصريح"[٢٤] **وأرى من استقراء شواهدِها لدى الجاحظ والمبرد وثعلب أنَّها تكون في الكناية كما تكون في التَّعريض، كذلك أُرَجِّحُ الجمعَ بين قولَي المبرّد وثعلب في تعريفها،** فـتكون اللَّطافةُ في العدول عن اللفظ القبيحِ المفحِشِ مثل الاسم الموضوع لغةً للجماع، كما تكون في العدول عن اللفظ المنفِّرِ كالمثال الذي ذَكَرْتُهُ هنا من قول الجاحظ، أمَّا ابنُ قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فـيَذْكُرُ لِلَّطافةِ اسماً آخر هو التلطُّف، وقد عقدَ له فَصْلاً وَسَمَهُ بعنوان "التلطُّف في الكلام والجواب وحسن التَّعريض"[25] ولم يذكرْ حَدَّهُ، وتوسَّعَ في شواهده، وأدخلَ فيه تهجينَ الحَسَنِ وحُسْنَ الجوابِ، والتَّلطُّفُ عندي أوسعُ من العدول عن اللفظ القبيح، لأنَّه يدخل فيه تهجين الحَسَنِ، أمَّا اللطافة فهي تحسين الهجين من القبيح كالمفحِشِ والمنفِّر، وقد عرَّفَ التَّلطُّفَ أبو هلال العسكريُّ (ت ٣٩٥هـ) فقال: "هو أنْ تتلطَّف للمعنى الحسن حتَّى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسّنه"[26] ولذلك ذهبْتُ إلى أنَّ التلطُّفَ أوسعُ من اللطافة، من حيث قيام اللطافة على العدول عن اللفظ القبيح تحسيناً للفظ الهجين، في حين يقوم التَّلطُّف في تعريف العسكريّ على النَّقيضين؛ تحسينِ القبيحِ أو تقبيحِ الحَسَنِ، وأستدلُّ على ذهبْتُ إليه من الفارق بين اللطافة والتلطُّف أنَّ الثَّعالبيَّ (ت ٤٢٩هـ) قد أثبتَ اللطافةَ بهذا الاسم، وقَصَرَها على العدول عن اللفظ القبيح الذي يكون مُفْحِشاً جارحاً للحياء، فقال: "فانظرْ إلى لطافة هذا الكلام، وحُسْنِ كنايته عن العورة والنِّكاح"[٢٧] وانظرْ شواهدَ الثعالبيّ تجدْ أنَّه جعلَ اللطافةَ جاريةً في الكناية والتَّعريض، وتوسَّعَ في اللطافة لتشملَ اللَّفظَ المنفِّرَ المتطيَّر به، لأنَّه من توابع اللفظ القبيحِ وإنْ لم يكن مُفْحِشاً، وقد تابعَهُ أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد الجرجانيُّ (ت 482هـ) فقال في فضائل هذا الفنّ: "من فوائده التَّحرُّزُ عن ذِكْرِ **الفواحشِ** السَّخيفةِ بالكنايات اللطيفة، وإبدالِ ما يَفْحُشُ ذِكْرُه في الأسماع، بما لا تنبو عنه الطِّباعُ... ومنها تَرْكُ **اللَّفظِ المتطيَّرِ** من كَرْهٍ إلى ما هو أجمل منه، كقولهم: لعقَ فلانٌ أُصْبُعَهُ، واستوفى أَكْلَهُ، ولحقَ باللطيفِ الخبيرِ، يُكَنُّون به عن الموت، فعدلوا إلى هذه الألفاظ تطيُّراً من ذِكْرِهِ بلفظه"[٢٨]. وتأسيساً على ذلك تكون اللَّطافةُ أضيقَ من الكناية والتَّعريضِ لقيامِها عليهما، مع اشتراطِ قيامِها على العدول عن اللفظ القبيحِ.

ثانياً: اللطافة في القرآن الكريم من الجانبين الدِّلاليّ والجماليّ

عَلِمْنا أنَّ اللطافةَ تعني العدولَ عن اللفظ القبيحِ، ونعني باللفظ القبيحِ من حيث الاصطلاح عليه أمرين؛ **الألفاظَ الجارحةَ** للحياء كالألفاظ الموضوعة لغةً للدِّلالة على الجماع، و**الألفاظَ المنفِّرةَ** كالألفاظ المتعلِّقة بما يُتَطَيَّرُ به أو بهجاء المعاندين بالأجوبة المسْكِتَةِ عند الجدل والخصومة المعرِّضة بغباوتهم، وسندرس مقاصدَ اللطافة في القرآن الكريم في مجال العدول عن الألفاظ الجارحة للحياء، ثمَّ مجالِ العدولِ عن الألفاظ المنفِّرة.

أ. مقاصد لطافة العدول عن الألفاظ الجارحة للحياء

ينتظم الإطار الأخلاقيُّ العامُّ لهذه الظَّاهرة في ثلاثة محاور؛ **الأوَّل:** تنزيه البارئ سبحانه وتعالى عن ذِكْرِ ما لا يليق بذاته من الكلام، **والثَّاني:** تنزيهُ سَمْعِ المتلقِّي عن أن يقع فيه من اللفظ القبيحِ الفاحشِ ما يخدشُ حياءَه، أو يفسد فطرتَه السَّليمةَ التي كان بها الحياءُ شعبةً من شُعَبِ الإيمان، **والثَّالث:** رُقِيُّ الخِطابِ

---

[24] ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني، قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥، ص ٩٤.

[25] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ه، ٢/ ٤١٢.

[26] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٧٢٤.

[27] الثعالبي، التعريض والكناية، ص٢٢.

[28] أبو العباس أحمد بن محمد الجرجانيُّ، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٠٨، ص٣.

القرآنيّ من حيث هو رسالةٌ إلى المتلقّي تهدف إلى ترسيخ أسلوب اللطافة عند التعرُّض للحديث عن هذه الموضوعاتِ الحَرِجَةِ. ومن نافلة القولِ أنْ نشيرَ إلى أنَّ العدولَ عن اللفظ القبيحِ الجارحِ للحياءِ مرتبطٌ أساساً بالجانب الأخلاقيّ للقرآن، غير أنَّنا لا نَغْفلُ عن المقاصدِ الدلاليَّةِ الفرعيَّةِ لذلك العدول، وهي مقاصدُ يفرضُها سياقُ الآياتِ نَفْسِيّاً واجتماعيّاً إضافةً إلى حضور الغرضِ الأخلاقيّ المنشود.

من مقاصد لطافة التَّعبير في القرآن الكريم **العدولُ عن اللفظ القبيحِ المفحشِ مع التَّوسُّعِ في الدِّلالة عليه**، وهذا من عجائبِ بلاغة القرآن، فَمِنْ أمثلتِهِ قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[29] ذكر الطبريُّ (ت ٣١٠هـ) أنَّ بعضَ المفسّرين ذهبوا إلى أنَّ المراد بالسِّرّ أن يأخذ الرَّجلُ ميثاقَ المرأة في عِدَّتها، لكنَّه أشار إلى أنَّ آخرين قالوا إنَّ السِّرَّ هنا عدولٌ عن اللفظ الموضوع لغةً للدِّلالة على الفاحشة، واختارَ هذا الرَّأيَ فقال: "وأولى الأقوالِ بالصَّواب في تأويل ذلك تأويلُ مَنْ قال: السِّرُّ في هذا الموضع الزِّنا، وذلك أنَّ العرب تُسَمِّي الجماعَ وغَشيانَ الرَّجلِ المرأةَ سِرّاً "[30] ورأى الطبريُّ أنَّ مرادَ المعنى النَّهيُ عن أن يواقِعَها سرّاً، ثمَّ إذا فرغَتْ مِنْ عِدَّتها أَشْهَرَ نكاحَها، فكنَّى عن ذلك بالسِّرّ، وهذا رأيٌ يُقوِّيهِ ما وردَ عن العرب من أنَّهم كانوا يكنون عن الجماع بالسِّرّ، قال ابنُ أبي الإصبع العدواني (ت ٦٥٤هـ): "ولكنْ لا تُواعِدُوْهُنَّ سرّاً ، كناية عن الجماع، قال امرؤ القيس:

أَلا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليَومَ أَنَّني * كَبِرتُ وَأَنْ لا يُحسِنِ السِّرَّ أمثالي

ذهبَ كلُّ مَنْ فسَّرَ شعرَهُ من العلماء أنَّه أراد بالسِّرّ الوقاع"[31]ومهما اختلفَ المفسّرون في معنى ذلك فإنَّ فيه لطافةَ التَّعبيرِ بالعدول عن اللفظ القبيحِ للفاحشة، كذلك يجب أنْ لا يَغْفَلَ القارئ عن أنَّ لفظَ الزِّنا في القرآن الكريم معدولٌ عن لفظٍ آخرَ فاحشٍ دالٍّ على معناه اللغويّ، لأنَّ الزِّنا لغةً معناه الضِّيْقُ[32]، وقِيلَ للحاقن: زنَّاء؛ لأنَّه يضيق ببوله، ثمَّ اسْتُعْمِلَ للدِّلالة على مباشرة المرأة الأجنبيَّة بفعل الفاحشة، وورد لفظُ الزِّنا في القرآن في النَّواهي وفي آيات الأحكام كقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[33] وهذا محلُّ التَّشريع، وفي موضعَي التَّأديبِ والتربيَّةِ الأخلاقيَّةِ كنَّى القرآنُ عن حَدَثِ الزِّنا بالإثم والخبث وغيرهما **اتِّساعاً في الدِّلالة ليشملَ الزِّنا وما يتَّصل به من قولٍ أو عَمَلٍ يُفضيان إليه**، فمن الكناية عنه بلفظ الإثم ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[34] قال الطبريُّ (ت ٣١٠هـ): "أمَّا ظاهره فالزَّواني في الحوانيت، وأما باطنُه فالصَّدِيقةُ يتَّخذها الرَّجل فيأتيها سرًّا"[35] وقد جَمَعَتِ الآيةُ اللفظينِ "ظاهر الإثم وباطنه" لإرادةِ العموم، ومنه لفظُ الخبثِ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾[36] قال أبو حيَّان (ت ٧٤٥هـ): "يكون قريباً من قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾"[37].

---

29 البقرة: ٥٣٢.

30 الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٥/ ٠١١.

31 ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٣٦٩١، ص ٣٤١. إلّا أن البيت ورد في ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم برواية "اللهو" بدلاً من "السر". امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط٥، د.ت، ص٨٢.

32 ابن منظور، لسان العرب، ٤١/ ٠٦٣ (زني).

33 النور: ٣.

34 الأنعام: ٠٢١.

35 الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٢١/ ٤٧.

36 النور: ٦٢.

37 أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،

ومن مقاصد اللَّطافة **تنزيهُ المؤمن عمَّا لا يليق به من الكلام القبيح**، كالكناية عن القَذَرِ بالأذى في موضع ذِكْرِ الحَيضِ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[38] قال مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ): "يعني قذر"[39] وكلمة قذر ثقيلة في حقّ المؤمن، ولما كان محلُّ اللفظ متعلِّقاً بذكر المؤمنات فقد نزَّهَهُنَّ القرآنُ عمَّا لا يليق من الوصف، وإن كان الحيضُ يقع للمؤمنة وغيرِ المؤمنة، إلا أنَّ محلَّ الآيةِ مقصودٌ به التَّشريع للمؤمنين والمؤمنات بدليل قوله تعالى في أوَّل الآية: "ويسألونك" فجاء لفظُ الأذى عدولاً عن النَّجس لتلك الحكمة الخفيَّة، ولم يوصف في القرآن حالُ المؤمنةِ بالنَّجس قطُّ، وفي لطافةِ لفظِ (الأذى) ثلاثةُ مقاصدَ دلاليَّة: **الأوَّل:** يتعلَّق بتنزيهِ القرآن عن اللفظ القبيح وعدولِهِ عنه إلى غيره على سبيل اللطافة، **والثَّاني:** يدلُّ على تكريم المرأة بوصف ما يخرجُ منها بأنَّه أذى، وكلمةُ الأذى فيها من لُطْفِ الدِّلالة ما ليس في كلمة النَّجس أو كلمة القذر، **والثَّالث:** ما في لفظ الأذى من الإشارة إلى القصد الشَّرعيِّ بالتَّحريم، وهذا القَصْدُ الشَّرعيُّ دلَّ عليه لفظ الأذى، إذ لا يخفى ما للجماع في الحيض مِنْ ضَرَرٍ على الرَّجل والمرأة معاً، فضلاً عن أنَّ الفطرة السَّليمةَ تعافُهُ، لذلك خُتِمَتِ الآيةُ السَّابقةُ بقوله تعالى: ﴿ويحبُّ المتطهِّرين﴾[40] مناسَبَةً للغرضِ نفسِهِ.

ومن مقاصد اللَّطافةِ **إظهارُ الغاياتِ السَّاميةِ باللفظ اللطيف**، نحو استعمالِ لفظِ الحَرْثِ للدِّلالة على موطن الوطْءِ في المعاشرة الزوجيَّة، وهذا من لطائف التَّعبير القرآنيِّ التي لا تخلو من مقاصدَ دلاليَّة يفرضها السِّياقُ في الآية الكريمة: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[41] قال ابن عطيَّة (ت ٥٤٢ه): "نزلت الآية مُبِيحَةً الهيئات كلها إذا كان الوطءُ في موضع الحَرْثِ"[42] وتشير كلمةُ الحَرْثِ إلى الموضع الذي ينبت فيه الزَّرعُ، والمرادُ منه محلُّ النَّسلِ مجازاً، فكان ذلك دليلاً على لطافة التَّعبير وبلاغةِ الاستخدام وبيانِ الغايةِ السَّاميةِ للجماع بجمال العدولِ المقترنِ بدلالة الآية، أشار إلى ذلك القرطبيُّ (ت ٦٧١هـ) فقال: " لأنَّ الحكمةَ في خَلْقِ الأزواجِ بَثُّ النَّسْلِ"[43] كذلك كان لفظ الفَرْجِ في القرآن الكريم على سبيل لطافة التَّعبير عدولاً عن اللفظ القبيح الفاحش الموضوعِ لغةً لاسم العَورة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[44] والمقصدُ الدِّلاليُّ من العدول عن ذكر الاسم الصَّريح للعورة أخلاقيٌّ، وهذا أمرٌ بات معروفاً لنا بما سبق، أمَّا المقصد الدِّلاليُّ من استعمال لفظ الفَرْجِ عِوضاً عن الألفاظ المعدولة الأخرى، كالحرث مثلاً؛ فهو الإشارة إلى ما يأتي من طريق الفرجِ من الشَّرِّ، فَيَلْزَمُ بذلك حِفْظُهُ، ويشير إلى ذلك الفعل (يحفظ) من قوله تعالى: "وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ" وكنَّى القرآن عن اسم العورة بلفظ الجلود، وهذا من وجوه مراعاة الدِّلالة القرآنيَّة لسياق الآية كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[45] قال الطبريُّ (ت ٣١٠هـ): "إنَّما عُنِيَ فروجُهم، ولكن كُنِّيَ عنها"[46] وقال

٠٠٠٢، ٦/ ٥٠٤. والآية المذكورة من النور: ٣.

38 البقرة: ٢٢٢.

39 مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تفسيره، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ٣٢٤١هـ، ١/ ١٩١.

40 البقرة: ٢٢٢.

41 البقرة: ٣٢٢.

42 ابن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٢٤١ ه، ١/ ٩٩٢.

43 القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ٤٦٩١، ٣/ ٤٩.

44 النُّور: ٠٣- ١٣.

45 فُصِّلت: ١٢.

46 الطبري، جامع البيان، ٥/ ٠١١.

الزمخشريُّ: "شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبهَ ذلك ممَّا يفضي إليها من المحرَّمات... وقيل هي كناية عن الفروج"[47] وهذا يدلُّ على أنَّ القرآن الكريم كان يوافق حالَ السِّياق في **اصطفاء اللفظ المعدول إليه المناسبِ لدلالة الآية**، والحَرْثُ والفَرْجُ والجلودُ كلُّها كناية عن العورة، وليست هي الأسماء اللغويَّةُ الموضوعةُ لاسم العورة على وجه الحقيقةِ، ولما كان الحَرْثُ أبلغَ في الدِّلالة من الفَرْجِ على محلِّ النَّسلِ عَدَلَ القرآنُ إليه، فاختار لفظَهُ لهذه الدِّلالة المقصودة بدلاً من **الفَرْجِ والجلودِ** في الآية الكريمة ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[48] ولما كان الفَرْجُ كثغور العدوّ خَلَلًا بين طَرَفَينِ يأتي منه الشَّرُّ وَجَبَ حِفْظُه منَ الحرام، كما تُحْفَظُ الثُّغورُ من العدوّ، فَعَدَلَ القرآنُ إلى لفظ الفَرْجِ عن ذِكْرِ اسم العورة لأنَّه الأنسبُ من حيث الإشارة إلى دلالة حِفْظِ الفَرْجِ، كما في الآية ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[49] في حين أنَّ لفظَ الجلودِ أنسبُ للعذاب، لأنَّ الجلودَ هي الشَّاهدُ على معصية الزِّنا على وجه الخصوصِ، وهي محلُّ العذاب في النَّار على وجه العموم، لذلك عَدَلَ القرآنُ إلى (الجلود) عن ذِكْرِ العورة ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[50] وكلُّ ذلك عُدولٌ عن الأصل، لكنْ لا على سبيل التَّرادفِ، فَلِكُلِّ لَفْظٍ معدولٍ من خصوصِ المعنى ما فرضَهُ، فتأمَّلِ الجمالَ اللغويَّ لمقاصد اللطافة في القرآن الكريم.

ومن مقاصد العدول عن اللفظ القبيحِ **الاستعطافُ وبَعْثُ الرَّحمةِ** في قلب الزَّوج تذكيراً له بما كان من المعاشرة قبلَ العَزْم على الطَّلاق، فلا يظلمها حقَّها، وهذا من لطافة الدِّلالة على معنى الجماع في القرآن، ونجده في لفظ الإفضاء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[51] قال مجاهد (ت ١٠٤هـ): "يعني كلمةَ النِّكاح التي استحلَّ بها الفَرْجَ"[52] وقال الثعلبيُّ: "أراد المجامعةَ، ولكنَّ الله كريمٌ يكنّي بما شاءَ عمَّا شاء، وأصلُ الإفضاء الوصول إلى شيءٍ من غير واسطةٍ"[53] وإنَّما جرى العدولُ إلى هذا اللفظ دفعًا للقبيح المستهجَنِ الدالِّ على الاسم الحقيقيِّ الموضوع للجماع، واختار القرآنُ هذا اللفظ دون غيره من الألفاظ الأخرى الموضوعة له لأنَّه أنسبُ للمعنى، فالكنايةُ بالإفضاء تحتملُ معنى الجماع، وتحتملُ ما فيه من السِّرِّ بين الزَّوجين، ومن لطافةِ دلالةِ لَفْظِ الإفضاء في الآية الكريمة ما يمنع أن يضارَّ الزَّوجُ زوجتَه عند طلاقها، فيأخذَ منها ما كان دَفَعَه إليها لِتَفْتَكَّ نفسَها منه، فَصَلُحَ لفظُ الإفضاءِ لبعث الرَّحمةِ في النُّفوس عند اشتجار الخلافِ بين الزَّوجين تذكيراً بما كان بينهما مِنْ قَبْلُ.

ومن مقاصد اللطافة **الدِّلالةُ على الحِلِّ والتَّحريمُ مِنْ غير خَدْشِ الحياء**، فَمِنَ الحِلِّ قولُه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[54] قال الزَّجَّاجُ: "الرَّفث: كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما يريد الرَّجلُ من المرأة، والمعنى ههُنا كناية"[55] ومنَ التَّحريم قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[56] ففي ذلك العدولِ لطافةُ

47 الزمخشري، الكشاف، ٥/ ٨٧٣.
48 البقرة: ٣٢٢.
49 النُّور: ٠٣.
50 فُصِّلت: ١٢.
51 النِّساء: ٠٢- ٢٢.
52 مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسيره، د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٩٨٩، ص١٧٢.
53 الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، مراجعة نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ٣/ ١٧٢.
54 البقرة: ٧٨١.
55 الزَّجَّاج، أبو إسحق إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ١/ ٥٥٢.
56 البقرة: ٧٨١.

التَّعبير من حيث اطِّراح اللفظ القبيح الدال حقيقةً على الجماع، وقد نهى الله تعالى عن ذلك في الاعتكاف، لأنَّ فيه من خروجاً عن حال التفرُّغ للعبادة التي لَزِمَها المعْتَكِفُ بإرادته حينَ نَوَى الاعتكافَ في بيتِ الله، قال القشيريُّ (ت ٤٦٥هـ) في تفسير هذه الآية: "إذا كنتم مشاغيلَ بنفوسكم كنتم محجوبين بكم فيكم، وإذا كنتم قائمين بنا فلا تعودوا منَّا إليكم"[57] ففي قوله تعالى "لا تُبَاشِرُوهُنَّ" من جمال الدِّلالة وجلالِ القَصْدِ ما لا تُخْفِيهِ لطافةُ المعنى، وجاء لفظُ المباشرة للجماع مانعاً لمباشرة الاعتكاف، فكان القَصْدُ الخفيُّ لاصطفاءِ لفظ المباشرة مانعاً من الجمع بين شهوة النَّفس إلى مباشرة الجماع والرُّجوع إلى إرادة الرُّوح لمباشرة الطَّاعة.

ومن مقاصدِ اللطافة في القرآن الكريم **تأديبُ المؤمنِ على استعمال الكنايةِ عن الفِعْلِ القبيحِ** في دَرْجِ الحكاية بـتنزيهِ الكلام عن التَّصريح به، فإنْ حَدَثَ في المجتمع فِعْلٌ يخدش الحياء ممَّا يستنكره النَّاسُ ويستوجب الحُكْمُ التربويُّ الكلامَ فيه للعبرةِ وَجَبَ العدولُ عن الألفاظ القبيحة إلى اللطافة، لكنَّ حكايةَ الحدثِ في سياق القصَّة يقتضي أحياناً الدُّخولَ في التَّفصيلات التي تُفضي إلى بيان الأحداث المتداخلة، فكيفَ تُقَصُّ تفصيلاتُ الحكايةِ على المتلقِّي إنْ كانت تتناولُ مثل هذه الموضوعاتِ؟ إنَّ هذا النَّمطَ من العدولِ هو مِنْ أعْقَدِ أنواعِ العدولِ عن اللفظ القبيح في القرآن، لأنَّه يأتي في مَعْرِضِ قَصِّ الحكاية ورسمِ أحداثِها وتفصيلاتها، نضرب مثالاً لذلك من سورة يوسف في قصَّته مع امرأة عزيز مصر، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[58] ويُفضي لفظُ "راودَتْهُ" في الآية الكريمة إلى إيجاز الحدثِ في كلمةٍ تدلُّ على بيان تفصيلاتِ الفعلِ القبيحِ، مع قَصْرِ الإرادةِ فيه على امرأة العزيز، ويشير اللفظ إلى ذلك المعنى من غير أن يخدشَ حياءَ السَّامعِ، وأصلُ المراودةِ في اللغة الإلحاحُ على طلبِ شيءٍ يقال: " راودْتُه على أن يَفْعَلَ كذا، إذا أردْتَه على فِعْلِهِ"[59] ثم استعمله القرآنُ الكريمُ في الدِّلالة على المراودة للجماع، فكان ذلك اللفظ اختزالًا للحادثة، وجاءت الآية "وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ" زيادةً في بيان معنى القهرِ على الفعل القبيحِ والجبرِ عليه، وفي لفظ "هَيْتَ لك" من البلاغة كل إيجازٍ مُعْجِزٍ، حتَّى اختلفَ في تأويله المفسّرونَ، قال مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ): "يعني هَلُمَّ لك نفسي، تريد المرأةُ الجماعَ"[60] وقال سفيان الثوريُّ (ت ١٦١هـ): "تهيَّأتُ لك"[61] وجاء قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[62] حاملًا للمعنى مُخْتَزِلًا للحَدَثِ من دون الولوجِ في تفصيلاتٍ لا يليقُ ذِكْرُها، وهذا من جماليَّات الخطابِ القرآنيّ، في حين يجد القارئُ للقصص الغربيَّة والقصص العربيَّة التي تتعرَّضُ لأمثال هذه الموضوعاتِ أنَّ كثيراً منها لا يتورَّعُ في السَّرْدِ القصصيّ عن الإغراقِ في قبائحِ التَّصوير والأوصافِ الجنسيَّةِ الصَّريحةِ على نحوٍ يُعَرّي الأدبَ من ثوب الحياءِ أحياناً، حتَّى إنَّ أحدَ الباحثين استهجنَ أن يقع في ذلك بعضُ كُتَّاب القصَّة في الأدب العربيّ: "وحقّاً يؤسفنا أن نرى كاتباً متخصّصاً في الأدب الجنسيّ مثل إحسان عبد القدُّوس يتحوَّل بموضوعات الجنس إلى مجموعةٍ من المسائل الثانويَّة التَّافهة"[63] كذلك باتَتْ أزمةُ السَّرْدِ الجنسيّ في بعض الإنتاجِ القصصيّ المعاصرِ أزمةً اجتماعيَّةً وأخلاقيَّةً ونفسيَّةً، وقد وقعَ

---

57 القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٧٠٠٢، ١/ ١٩.

58 يوسف: ٣٢.

59 ابن فارس، أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ٩٧٩١م، (رود).

60 مقاتل بن سليمان، تفسيره، ٢/ ٧٢٣.

61 سفيان الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، تفسير الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٣٨٩١، ص ٩٣١.

62 يوسف: ٤٢.

63 شكري، د. غالي، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٨١٣- ٩١٣.

بعضُ الرّوائيّين في مزالقَ ناتجةٍ من طرائق التَّعبير القبيحةِ التي كان في الإمكان تجاوُزُها، وقديماً لم تُحْسِنْ أسفارُ التَّوراةِ المحرَّفَةِ في أساليب تَعَرُّضِها لمثل هذا الموضوع، فجاءت ألفاظُها صريحةً، ويجد القارئ في كثيرٍ منها قصصاً تخدش حياءَ الفِطْرَة الإنسانيَّة من للصِّغار ناهيكَ عن الكبار، وتدفعنا قراءةُ تلك الأسفار إلى النُّفور من أسلوبها السَّرديّ الهجين، ولاسيَّما ما يتعلَّق بوصف السُّلوك الجنسيّ للبغايا، والتَّصريح بالألفاظ المستهجنة على نحوٍ يَذْهَبُ بالهدفِ الأخلاقيّ المزعوم في تلك الحكاياتِ المحرَّفةِ، ليصبحَ ذلك الهدفُ مُغَيَّباً في خِضَمّ تلك الألفاظ القبيحةِ[٦٤]، في حين نجد أنَّ القرآنَ الكريم حرصَ حرصاً عظيماً على مراعاةِ مكارم الأخلاق في السَّرْدِ اللفظيّ ليكون كتاباً صالحاً للقراءة للصَّغير والكبير معاً، وهذا لا يعني أنَّ القرآنَ لم يَذْكُرْ شيئاً ممَّا يتعلَّق بالحياة الجنسيَّة للإنسان التي هي جزءٌ من الحياة الإنسانيَّة، لكنَّه آثرَ العدولَ عن الألفاظ القبيحة المستهجَنة. تأمَّلْ قولَ الله تعالى: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ" تجدْ أنَّه لفظٌ جامعٌ لتلك المعاني التي تُلْمِحُ إلى كلّ ما فَعَلَتْهُ تلك المرأةُ من الإصرار على فِعْلِ الفاحشة والعَزْمِ عليها، أمَّا قولُه تعالى: "وهمَّ بها لولا أنْ رأى بُرْهانَ ربِّه" ففيه الإشارةُ إلى أنَّ الله تعالى هو الذي يَعْصِمُ أنبياءَه عن الوقوع فيما يَقْدَحُ بِنُبُوَّتهم، والفعلُ (هَمَّ) في الآية حمَّالُ وجوهٍ معنويَّةٍ اختلفَ في تأويلها المفسّرون على وجه الحقيقة، كذلك ذكرَ بعضُ المفسّرين ما لا يليق مع أنَّ اللفظ وردَ في سياق اللطافة المنَزَّهَةِ عن التَّصريح، فَكُنَّا في غنى عن التَّصريح، آخذينَ في الحسبان تنزيهَ الأنبياءِ عن القبائح أو عمَّا يقدحُ في نبوَّتهم، ولذلك يمكننا تفسيرُ الفعل (هَمَّ) بمعنى العِصْمَةِ التي جعلها الله للنَّبيّين من غير الدُّخول في تفصيلات الحَدَثِ، ومن اللطافة في هذه القصَّةِ قولُه تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦٥] فـفي الآية الكنايةُ عن الزّنا بالسُّوء، إذ رَمَتْهُ بهذه التُّهمة لِتَتَسَلَّ منها مُدَّعِيَةً العِفَّة، ولم يصرّح القرآن باللفظ الموضوعِ لغةً لذلك، وعَدَلَ عنه إلى (السُّوء) فكان السِّياقُ هو الكاشفُ للمراد من ذلك اللفظ على هذا المعنى من التَّأويل، **والتَّأويلُ في العدول عن التَّصريح طاقةٌ تتجاوز حدودَ اللفظ إلى السِّياق**، لأنَّه "قدرةٌ فكريَّةٌ ينهض بها المتلقّي القارئُ للنصّ الباحثُ عن مدلولاته الجماليَّة وإيحاءاته الفكريَّة"[٦٦].

هكذا تمضي القصَّةُ في مثل هذا العدولِ عن التَّصريح بالألفاظ القبيحة، إلى الاستخدام الجماليّ لأسلوب اللطافةِ، إذ ليس المرادُ من القصَّة إثارةُ الغرائز، بل المرادُ منها صناعةُ القدوة والأُسوة الحسنة في العفَّة عن الحرام، فَكَثُرَ فيها العدولُ عن التَّصريح باللفظ القبيح، حتى وجدنا في اللفظ المعدول إليه من الطَّاقات التعبيريَّة ما يُغْني عن الأصل الموضوعِ في اللغة لتلك المعاني، **فكانت اللطافة تنزيهاً لكتابِ الله تعالى عن السَّردِ القبيحِ لتفصيلات الحدثِ**، ومِنْ قَبيلِ ذلك الآيةُ الكريمةُ: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[٦٧] ففيها الإشارةُ إلى تفصيلاتِ القصَّةِ كلِّها دفعةً واحدةً على سبيل التَّعريض بامرأة العزيز، إذ ما كان ليوسفَ أن يُذَكِّرَ الملكَ بخيانة زوجتِهِ، وقد نَسِيَهُ في السِّجن، فاقتصرَ على أن يُذَكِّرَهُ بواقعةٍ أخرى لها صلةٌ بالأُولى، وهي واقعةُ النِّسوة اللاتي جَرَحْنَ أنفسهنَّ حين خرجَ عليهنَّ يوسفُ، وهذا من لطافة أسلوب القرآن الكريم في التَّعبير عن مثل ذلك بما يغني فيه اللفظ عن التَّفصيل، ومع ذلك نجد أنَّ هذه القصَّة قد قامَتْ بكلّ مقتضيات الأسلوب الأدبيّ لفنّ السَّرْدِ مِنْ دونِ أن تأتيَ بتعبيرٍ يخدشُ الحياءَ أو يَجْرَحُ أُذُنَ المتلقّي، وما كان الدُّخول في سَرْدِ الحدث إلَّا من طريق العناية برسم المشهد القصصيّ الذي

64 مقار، شفيق، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، دار يعرب، دمشق، ط١، ٨٩٩١، ص٣٣- ٧٤١.
65 يوسف: ٥٢.
66 المبارك، محمد، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٩٩٩١، ص ٠٢٢.
67 يوسف: ٠٥.

يخدم هدفَ القصَّة، فمثلاً تأمَّلْ هذه التَّراكيبَ من الآيات: "قالَتْ: هَيْتَ لكَ" "وغَلَّقَتِ الأبوابَ" "واسْتَبَقَا البابَ" ما جزاءُ مَنْ أراد بأهلكِ سُوءا" تجد أنَّها لم تأتِ فضولاً من القولِ، فلكلِّ تركيبٍ وظيفتُه الدلاليَّة في بيان الحدث القصصيِّ فضلاً عن المأخذ الجماليِّ لِلَطافةِ الألفاظ في سياق التَّراكيب.

ب. مقاصد لطافة العدول عن الألفاظ المُنَفِّرة

الألفاظُ المنفِّرةُ قبيحةٌ لا من جهة الدِّلالة على المعنى الجارح للحياء فحسبُ، بل من جهة أنَّها ألفاظٌ مُحْدِثَةٌ للنَّفْرَة بين المخاطَبِ والمتكلِّم، أو من جهة أنَّها ألفاظٌ لا تَسْتَبْشِرُ بها النَّفْسُ عند ذِكْرِهَا، أو من جهة انتفاءِ مناسَبَتِها للمخاطَبِ الأوَّلِ المخصوص بالخطاب، ولذلك تقترنُ لطافةُ العدولِ عن الألفاظ المنفِّرة في القرآن الكريم بمراعاة مقتضى الحال النفسيَّة للمتكلِّم أو المخاطَبِ أو كليهما معاً، ويظهر ذلك في ثلاثة محاور؛ **أوَّلها:** العدول عن اللفظ المنفِّرِ الذي يُفضي ذِكْرُهُ إلى عَقْدِ خصومةٍ مكشوفةٍ فيقع دَفْعاً للجدال العقيم. **ثانيها:** العدول عن اللفظ المنفِّر دَفْعاً لألفاظ البلايا رغبةً في التَّبشير وصرفاً للتَّنفير. **ثالثُها:** العدول عن اللفظ المنفِّر لتنزيهِ المتلقِّي الأوَّل المقصودِ بالخطابِ عن الأوصاف المنفِّرة، وفي إطار هذه المقاصدِ الرَّئيسةِ التي ذَكَرْتُها يمكننا إدراجُ المقاصد الدلاليَّة الفرعيَّة التي تفرضُها كلُّ آيةٍ بحسب مقتضى قرائنها اللفظيَّة أو المعنويَّة.

من المقاصد الخفيَّةِ للعدول عن اللفظ المنفِّر **التَّعريضُ بغباوة المخاطَبِ** المقصودِ مباشرةً بالخطاب حين لا يودُّ المتكلِّمُ وصفَ المخاطَبِ بتلك الصِّفة صراحةً، أعني صفةَ الغباوة، فمن أمثلة ذلك: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[68] وفيه تعريضُ يعقوبَ بغباوةِ إخوةِ يوسفَ الذين زيَّنَتْ لهم أنفسُهم قَتْلَ أخيهم وجاؤوا على قميصِهِ بدمٍ كذبٍ فطرحوه بين يدي أبيهم فَأَلْقَاهُ سليماً لا خَرْقَ فيه فَعَرَفَ كَذِبَهُمْ، قال القرطبيُّ (ت ٦٧١هـ): "وقال لِبَنِيهِ: أَرُونِي قميصَهُ، فأَرَوْهُ، فَشَمَّهُ وقَبَّلَهُ، ثمَّ جعلَ يُقَلِّبُهُ فلا يرى فيه شَقّاً ولا تمزيقاً"[69] وذكر السَّكَّاكيُّ (ت ٦٢٦هـ) أنَّه: "زيادةُ التَّقرير أو التَّعريضُ بغباوة سامعِكَ"[70] **فدفع باللطافة الخصومةَ مع الإشعارِ بغباءِ الخصم** حين قال "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا" وقد اختزلَتْ هذه اللطافةُ موقفَ يعقوبَ مِنْ خيانةِ إخوة يوسفَ له بأسلوبٍ بلاغيٍّ جماليٍّ رفيعٍ، ومن المعلوم أنَّ القيمةَ الأخلاقيَّةَ لا تمتنع من أنْ تَتَّحِدَ بالقيمةِ الجماليَّةِ لدى بعض علماء الجمال الأدبيِّ على نحو يُفضي إلى القَصْدِ، وإذا كانت القيمةُ الجماليَّةُ تتعلَّق بالشُّروط العامَّةِ لطرق تقييم الأسلوبِ اللغويِّ وتقديره، فإنَّ القيمةَ الأخلاقيَّةَ تتعلَّق بالشُّروط العامَّةِ التي تجعلنا نحكم على سلوكٍ ما أنَّه خيرٌ أو صوابٌ[71]، وهَلْ كان في وسع ذلك الأبِ المفجوعِ بولده يوسفَ الذي بادره إخوتُه بالخيانة سوى أن يقول: "فَصَبْرٌ جميلٌ" فجمعَ في هذه اللطافة معانيَ الجمالِ والجلالِ مع حُسْنِ الدِّلالة، واستبطنَ العدولُ عن التَّصريح باللفظ القبيح رجاحةَ عَقْلِ يعقوبَ، إذ عرَّض بغبائهم إذْ لم يخدعوه بالدَّم المكذوبِ.

ومن مقاصد اللطافةِ **التَّوبيخُ غير الصَّريح على سبيل التَّعريض،** كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[72] فقوله: "طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ" توبيخٌ لهمْ وتكذيبٌ لما يقولون، أي: طاعتُكم طاعةٌ معروفةٌ بالأقوال لا الأفعال، قال الطبريُّ (ت

68 يوسف: ٨١.
69 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٥١.
70 السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٧٠٢.
71 الصباغ، د. رمضان، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨، ص ٧٩١.
72 النور: ٥٣.

310هـ): "لا تحلفوا، فإنَّ هذه (طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ) منكمْ، فيها التَّكذيبُ"[73] غير أنَّ القرآنَ الكريمَ عدلَ هنا عن التَّصريح بالتَّوبيخ مقتصراً على التَّلميح، فإنْ قيلَ لِمَ صرَّحَ القرآنُ في مواضعَ أخرى بعصيان المخلَّفينَ من الأعراب فوبَّخ اللهُ تخاذلَهم، ثمَّ لم يصرّحْ هنا بتوبيخهم، فأقول: **هذا الأسلوبُ من مُوافقاتِ الخطابِ القرآنيِّ لمقتضى الحال التي تفرضُ تنوُّعَ الأساليبِ اللغويَّةِ بين التَّصريحِ تارةً والعدولِ عنه تارةً أخرى**، فيكون التَّصريحُ في بعض المواضع إشهاراً للمخالفة التي تقتضي الأحكامَ الجزائيَّةَ، فلمَّا أراد الله تعالى أن يجعل للمخلَّفين من الأعراب عقوبةً كشفَ التَّوبيخَ لهم، فصرَّحَ بالمخالفة تصريحاً، ثمَّ أمرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ لا يصلِّيَ على أحدِهِمْ وأنْ لا يقومَ على قبره إنْ مات: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾[74] وهذا موضعُ تصريحٍ، أمَّا قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾[75] فهو موضع تعريض لا تصريح، وهذه الآية من سورة النُّور، وهي سورةٌ سابقةٌ في النُّزول لسورة التَّوبة، فكان التَّعريضُ بفعلهم من أساليب تدرُّجِ القرآن الكريم في تربية المجتمع الإسلاميّ بتوبيخ المخالفين من أفراده، فعدلَ في سورة النُّور عن التَّصريح بالتَّوبيخ، ثمَّ صرَّح به في سورة التَّوبة وقَرَنَهُ بالعقوبة الدَّافعة للمخالفة.

ومن مقاصد اللطافةِ **إلزامُ المخاطَبِ بالحجَّة لِسُخْفِ مَذْهَبِهِ أو ضلالةِ مَسْلَكِهِ** من غير التَّصريح بذلك، كالذي نجده في حوار الرَّجلِ المؤمنِ الذي جاء من أقصى المدينة حين كَذَّبَ أهلُ القريةِ المرسلين: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[76] ففيه تعريضٌ بأهل القرية أنهم لم يعبدوا فاطرَهُمْ، وفيه التَّعريضُ بِسُخْفِ مَذْهَبِهِمْ بعبادة ما لا ينفع، وضلالِة مَسْلَكِهِمْ في مخاصمة المرسلين، ولا يخفى أنَّ اللغةَ تجنح في بعض حالاتها إلى **تكثيف الدِّلالة بالإيحاء النَّاتج من العدول عن التَّصريح**، ولذلك "تعتمد على الطَّاقات الإيحائيَّة في الظَّاهرة اللغويَّة أكثر من اقتصارها على طاقاتها التَّصريحيَّة"[77] لأنَّ للعدول عن التَّصريح من الدِّلالات ما يؤهِّله للتَّعريض بالخصوم من غير التَّصريح باللفظ القبيح المنفِّر، مع إلزام الخصومِ الحجَّةَ في المدافعة بالقول، كالذي نجده في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[78] فعرَّضَ بعقولهم، وألزمَهُمُ الحجَّةَ بسخفِ مَذْهَبِهِمْ، لأنهم كانوا يزعمون أنَّ أصنامهم تَعْقِلُ، قال الأخفشُ الأوسطُ (ت ٢١٥ هـ): "وقال (فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ) فذَكَّرَ الأصنامَ وهي من الموات، لأنَّها كانت عندهم ممَّن يَعْقِلُ أو ينطق"[79] وعلى هذا يكون قوله: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" من الضَّرورات اللغويَّة اللازمة لذلك التَّعريض، لأنَّه ما قال لهم: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" تخلُّصاً من اتّهامهم له بتكسير الأصنام، بدليل أنَّه توعَّدهم بذلك قبل أن يفعله، فأقسم بالله أن يكيد أصنامَهم، ثمَّ قَدِمَ إليها فَحَطَّمها، وجعلَ الفأسَ في عُنُقِ كبيرها تعريضاً بأنَّهم سفهاء فيما يزعمون، ولذلك شفعَ قوله: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" بقوله: "فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ" وهذا من أمثلة المعاريض الجليلةِ التي يقومُ بها إثباتُ الحجَّة في الخصومة والدَّفْعُ بها في الجدل، **وهو مسلكٌ لطيفٌ منَ المقاصدِ الجماليَّةِ للعدول**، وبابٌ عظيم من مقاصد الدِّلالة البلاغيَّة، لقيامه بالحجَّة على غير وجهِ التَّصريح، حتَّى إنَّ المتقدِّمين جعلوا حدَّ البلاغة في: "إصابة

73 الطبري، جامع البيان، ٩١/ ٦٠٢.
74 التوبة: ٣٨- ٤٨.
75 النور: ٣٥.
76 يس: ٢٢- ٤٢.
77 المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٩٨٢، ص ٦٦١.
78 الأنبياء: ٢٦- ٣٦.
79 الأخفش الأوسط، معاني القرآن، ٢/ ٩٤٤.

المعنى والقصد إلى الحجَّة"[80] كذلك أفضى العدولُ عن التَّصريح إلى لطافة التَّعبير التي ترمي إلى إظهار حجَّة المتكلِّم في دَرْجِ الخطاب، بمنأى عن التَّصريح بصغر أحلام القوم وسُخْفِ طرائقهم، فلمَّا قال لهم ذلك شَهِدُوا على أنفسِهم بالسَّفاهة: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾[81].

ومن مقاصد اللطافةِ **التَّوسُّعُ في الدِّلالة على كلِّ لفظٍ منفِّرٍ قبيحٍ**، قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[82] قال مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ): "يقول إذا سمعوا من كفَّار مكَّة الشَّتْمَ والأذى على الإسلام مَرُّوا كِراماً مُعْرِضينَ عنهم"[83] فصار (اللغو) لفظاً دالًّا على كلِّ كلامٍ قبيحٍ، وهذا من باب إلطافِ السَّمعِ حتَّى لا يشاركَ فيه المؤمنونَ الكافرينَ، فتوسَّعت الدِّلالةُ على القبيح به، وصار يشمل قبائحَ الأقوالِ، حتَّى أهونَها أو أعظَمها على السَّمع، قال البغويُّ (ت ٥١٥هـ): "إذا سمعوا الكلامَ القبيحَ أكرموا أنفسَهم عن الدُّخول فيه"[84].

ومن المقاصد الجليلة للطافة **دَفْعُ الجدالِ العقيم ورميُ السَّفيهِ بما يتَّهِمُ به غيره**، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[85] فانظرْ إلى **خَفِيِّ المنزعِ الجماليِّ لهذه الدِّلالة**، كيفَ جعلَ في الظَّاهر لفظَ الجرم للمؤمنين، لكنَّما المقصودُ بهِ خصومُ المؤمنين "لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا" كذلك جعلَ للخصوم العملَ "وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ" والمقصودُ من هذا العدولِ رَمْيُ السُّفهاءِ بما اتَّهموا به المؤمنين من الإجرام من غير التَّصريح بلفظه، فجاءت اللطافة على سبيل التَّضاد، ورأى الكرماني (ت ٥٠٥هـ) أسلوبَ الإلطافِ فيه فقال: "هذا إلطافٌ للخصم إلى الإصغاء، فأضافَ إلى أنفسهم الجُرْمَ، وأضافَ إليهمُ العملَ جملةً"[86]، ولذلك ذهبَ أهلُ العلم بالبلاغة إلى القول: "أحسنُ الكلام ما كان قليلُه يُغْنيكَ عن كثيره"[87].

وتأتي بعضُ شواهدِ لطافةِ التَّعبير في القرآن الكريم **دَفْعاً لِلَّفظ المنفِّرِ عن موضعِهِ** بشارةً للمخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم، فيكون العدولُ عن التَّصريح باللفظ المنفِّرِ دَفْعاً له عن المؤمنين، وصَرْفاً لمعنى التَّنفير إلى التَّبشير، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[88] تأمَّلْ كيف جاءت كلمة (الدَّوائر) الأولى غيرَ مضافةٍ إلى السُّوء، لأنَّها في موضع المؤمنين، على خلاف كلمة (دائرة) الثَّانية في موضعِ المنافقين، فجاء العدولُ عن التَّصريح بلفظ السُّوء في الموضع الأوَّل على سبيل لطافة التَّعبير صارفاً لِلَّفظ المنفِّر عن موضعِهِ الأوَّل ليلحقَ بالمنافقين خاصَّة.

---

80 ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٨٩١، ١/ ٥٤٢.

81 الأنبياء: ٤٦- ٥٦.

82 الفرقان: ٢٧.

83 مقاتل بن سليمان، تفسيره، ٣/ ٢٤٢.

84 البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر، ط٤، ٧٩٩١، ٥/ ٩٠٤.

85 سبأ: ٥٢- ٦٢.

86 الكرماني أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران يونس العجلي، مؤسسة علوم القرآن، بيروت،٣٨٩١، ص ٦٣٩.

87 الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ٨٨٩١، ١/ ٣٨.

88 التوبة: ٨٩.

ومن اللطافة أيضاً **تنزيهُ المخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم عن اللفظ المنفِّر الذي لا يليق به،** قال تعالى في حقِّ يعقوب: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[89] فيقال لغيره: لا يُبْصِرُ أو أعمى، إنْ أُصِيبَ بِعَينَيهِ، ولا يُقال مثل ذلك في حقِّه، لذلك عَدَلَ القرآن الكريم هنا عن التَّصريح باللفظ الموضوع لهذا الشَّأن في اللغة، وهكذا نجد "أنَّ الذي يحكم على الحسن والقبح إنَّما هو الموقف والسِّياق"[90].

تأسيساً على ما سبقَ نستخلصُ النتائجَ الآتيةَ:

برز العدولُ عن التَّصريح باللفظ القبيح في القرآن الكريم في الكناية والتَّعريض، وجاء على قسمين؛ أوَّلهما: العدول عن الألفاظ الجارحة للحياء، وثانيهما: العدول عن الألفاظ المنفِّرة، وقد اقترنَ العدولُ عن الألفاظ الجارحة للحياءِ بالإطار الأخلاقيّ، وظهرَتْ مقاصدُه في ثلاثةِ محاورَ؛ الأوَّل: تنزيهُ البارئ سبحانَه عَنْ ذِكْرِ ما لا يليقُ بذاته، والثَّاني: تنزيهُ سَمْعِ المتلقّي عن أن يقع فيه من اللفظ القبيح ممَّا يخدش الحياءَ، والثَّالث رقيُّ الخطابِ القرآنيّ في رسالته إلى المتلقِّي التي تهدف إلى ترسيخ أسلوبِ التَّناولِ اللغويّ اللائق بهذه الموضوعات الحَرِجَةِ عند التَّعرُّض لها في المجتمع. أمَّا المقاصد الدلاليَّة الفرعيَّة لذلك العدول فهي مقاصدُ أملاها المعنى الخاصّ، وخَلُصَ البحثُ إلى جملةٍ من المقاصد، منها العدولُ عن اللفظ القبيح على سبيل التوسُّع في الدِّلالة عليه، ومنها تنزيهُ المؤمنِ عمَّا لا يليقُ به من اللفظ، وكان منها إظهار الغاياتِ السَّاميةِ باللفظ اللطيف، كاستعمال لفظ الحَرْثِ للدِّلالة على محلِّ النَّسْلِ، وأدَّتْ لطافةُ التَّعبير إلى إقصاء اللفظ القبيح الموضوع لغةً للدِّلالة عليه، وكان من مقاصدها تأديبُ المؤمن على الكناية أو التَّعريضِ في دَرْجِ الحكاية عن الفعل القبيح، وتنزيه الكلام عن التَّصريح به، ولكلِّ لفظٍ عُدِلَ إليه عن غيره وظائفه الدِّلالية وغاياته الجماليَّة في بيان الموضوعِ على نحوٍ يراعي المعنى من دون الدُّخول في صريح العبارات القبيحة.

أمَّا العدول عن الألفاظ المنفِّرة فاقترنَ بالإطار النفسيّ، وكانت الألفاظ المنفِّرةُ ألفاظاً قبيحةً لا من جهة الدِّلالة على الألفاظ الجارحةِ للحياءِ فحسب، بل من جهة أنها ألفاظ مُحدِثَةٌ للتَّنَفُّرَةِ بين المخاطَبِ والمتكلِّم، وظهرَتْ المقاصدُ العامَّة لذلك العدول في ثلاثة محاور، هي العدولُ عن اللفظ المنفِّرِ الذي يُفضي ذِكْرُهُ إلى عَقْدِ خصومةٍ مكشوفةٍ مع المخاطَبِ، والعدولُ عن اللفظ المنفِّرِ دَفْعاً لألفاظ البلايا ورغبةً في التَّبشير وَصَرْفاً للتَّنفير، والعدولُ عن اللفظ المنفِّر لتنزيهِ المتلقِّي الأوَّلِ المقصودِ بالخطاب عن الأوصاف المنفِّرة، وظهرَتْ في إطار هذه المقاصدِ الرَّئيسةِ جملةٌ من المقاصد الدِّلاليَّة الفرعيَّة التي فرضَتْها كلُّ آيةٍ بحسب مقتضى القرائنِ اللفظيَّة أو قرائن الأحوال المعنويَّة في كلِّ آيةٍ، وكان منها لطافة التَّعريض بغباوة المخاطَبِ المقصودِ مباشرةً بالخطاب حين لا يودُّ المتكلِّم وَصْفَ المخاطَبِ بتلك الصِّفة صراحةً، ومنها التَّوبيخ غير الصَّريح على سبيل التَّعريض، ومنها إلزامُ المخاطَبِ الحجَّةَ لِسُخْفِ مَذْهَبِهِ أو ضلالةِ مَسْلَكِهِ من غير التَّصريح بذلك، وجاءت بعضُ شواهد لطافةِ العدول في التَّعبير القرآنيّ بشارةً للمخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم، وتنزيهاً له عن الأوصاف المنفِّرة، وكلُّ هذه المقاصدِ صدرَتْ عن أسلوبٍ بلاغيّ شريفٍ أداتُه العدولِ عن التَّصريح باللفظ القبيح، وهذا ما نتجَ من خلال دراسة محور الاستبدالِ اللفظيّ في هذه الظاهرة.

---

[89] يوسف: ٤٨.

[90] عيد، رجاء، فلسفة البلاغة بين التَّقنية والتَّطوُّر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، ط٢، د.ت، ص٤٤.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد، ت ٧٣٦هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢. الأخفش الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة البصري ت ٢١٥هـ، معاني القرآن، تحقيق هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠ م.

٣. ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ت ٦٥٤ه، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٣م.

٤. امرؤ القيس ت ٨٠ ق. هـ، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط٥، د.ت.

٥. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود ت ٥١٠هـ، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر، ط٤، ١٩٩٧م.

٦. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ت ٦٨٥هـ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

٧. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد ت ٤٢٩هـ، التعريض والكناية، تحقيق عائشة حسين فريد ، دار قباء للطباعة، مصر، ١٩٩٨م.

٨. ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ت ٢٩١هـ، قواعد الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.

٩. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ت ٤٢٧هـ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١٠. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥ه، تحقيق عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ١٩٨٨م.

١١. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥ه، تحقيق عبد السلام هارون، الحيوان، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥م.

١٢. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف ت ٧٤٥ه، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١٣. الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر التيمي ت ٦٠٦ه، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٠ هـ.

١٤. ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني ت ٤٦٣ هـ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

١٥. الزجَّاج، أبو إسحق إبراهيم بن السري بن سهل، ت ٣١١هـ، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٦. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر ت ٨٣٥ه، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، العبيكان، الرياض، ط١، ٨٩٩١م.

١٧. سفيان الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ت ١٦١هـ، تفسير الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٣٨٩١م.

١٨. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد ت ٦٢٦هـ، مفتاح العلوم، ضبطه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ٧٨٩١م.

١٩. السيوطي، جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ١١٩هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٤٧٩١م.

٢٠. شكري، د. غالي، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٢١. الصباغ، د. رمضان، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ٨٩٩١م.

٢٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٠١٣هـ، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٠٠٠٢م.

٢٣. أبو العباس أحمد بن محمد ت ٢٨٤ه المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ٨٠٩١م.

٢٤. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله ت ٥٩٣هـ، كتاب الصناعتين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ٩١٤١ ه.

٢٥. ابن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٢٤٥هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٢٤١ ه.

٢٦. عيد، رجاء، فلسفة البلاغة بين التَّقنية والتَّطوُّر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، ط٢، د.ت.

٢٧. ابن فارس، أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا ت ٥٩٣هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ٩٧٩١م.

٢٨. الفرَّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله، ت ٧٠٢هـ، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١، د.ت.

٢٩. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٦٧٢هـ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ٣٧٩١م.

٣٠. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٦٧٢هـ، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ٨١٤١ه.

٣١. القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، ت ١٧٦هـ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ٤٦٩١م.

٣٢. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ت ٤٦٥هـ، لطائف الإشارات، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٣٣. الكرماني أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة ت ٥٠٥هـ، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران يونس العجلي، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٤. المبارك، محمد، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٣٥. مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي ت ٤٠١هـ، تفسير مجاهد، د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٩٨٩م.

٣٦. المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٩٨٢.

٣٧. معمر بن المثنَّى ت ٢٠٩هـ، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٨. مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي ت ١٥٠هـ، تفسيره، تحقيق عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٩. مقار، شفيق، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، دار يعرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٤٠. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.

٤١. يحيى بن حمزة بن علي الحسيني الطالبي ت ٧٤٥هـ، الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

42. Bilgegil, M. Kaya, Edebiyat Bilgi ve Teorileri, Sevinç Matbaası, Ankara 1980.